إهداء ..

إلى مشاعر دافئة وعميقة..

لقصص حب..

لم تكتمل أبدًا فى حياتى..

المؤلف

قبل الحكاية ..

دائمًا ما أسأل نفسى، هل تسِّكْن المشاعر والعواطف ـ فعلًا ـ عندما يجعل الإنسان نفسه وذكرياته فى الزمن الماضى، كما كان يقول الفيلسوف الفرنسى «أندريه موروا»؟ وعادة ما كانت الإجابة تأتى من أعماقى بالنفى.

فما زلت حتى هذه اللحظة، أشعر بدفء إحساسى باللحظات التى عشتها، وتفاعلت فيها مع الأحداث ووسط الناس، بكل حزنها وشجنها.. وأحيانًا فرحتها وبهجتها.

صحيح أن لحظات الفرح فى حياتى كان قليله، ربما إلى حد العدم، لكننى أتذكر تمامًا أنها حينما كانت تحدث كنت أعيشها بكل كيانى وإحساسى حتى الجنون، وكأننى أخشى ألا تمر علىَّ مرة أخرى.

ولعل حكايتى مع الوظيفة العامة هى من أكثر تلك الحكايات شجنًا وحزنًا فى تجربة حياتى كلها، وإذا جاز لى أن أصفها فى كلمة واحدة فهى تكاد أن تكون «صدمة»، بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وبكل ما تستدعيه عادة فى العقل والوجدان من أحاسيس دفينة بالغربة أو الانكسار.

كانت الصدمة منذ البدء، حينما اكتشفتُ تلاعب الأصدقاء ومناوراتهم، ثم كانت الصدمة فى اكتشاف المساحات الشاسعة بين تصوراتى وما أتمناه للناس وزملاء العمل والمكان، وحقيقة ضعفهم وكذبهم ونفاقهم، ولا أجاوز أو أتجاوز إذا قلت خياناتهم!.

وكانت الصدمة فى المنتهى، عندما علمتنى التجربة ـ و أجبرتنى ـ على إعادة النظر فى تلك الأفكار الرومانسية «الثورية» حول «الجماهير» والفئات «محدودة الدخل» وإمكانياتهم الثورية الكامنة، فإذا هم ـ بالتجربة الحياتية المعاشة ـ أبعد عن هذا، ابتعاد

الأرض عن السماء؛ فدارت بى حركة الأفكار المحكومة بمقولات «الأيديولوجيا» المسبقة، والمعبأة إلى شىء آخر تمامًا.

وهنا، أحاول أن أقدم تجربتى الشخصية والذاتية فحسب، بقدر ما أحرص أشد الحرص على إعادة توجيه أفكار البعض ـ عبر استخلاص العبر والحكم ـ إلى حقيقة منطق الأشياء وجوهر الفعل الإنسانى المحدود بحدود المصالح الفردية والأنانية المجردة، حتى يتسنى تقدير أوزان الأفكار والحركات الاجتماعية بقدرها الحقيقى دون مبالغة أو أوهام.

والوظيفة ـ والموظفون ـ لمن لا يعرفون، عالم غريب فريد، محكوم بقوانين غير مرئية، ومفاهيم أنانية، وصراعات غير مفهومة أو مبررة فى الكثير من الأحيان، وبقدر سكون سطحه، وبرودة انفعالات أفراده، يكون قدر غليان أعماقه وفوران صراعاته؛ التى تدور فى معظمها حول مسائل صغيرة بمنظور صراعات الحياة الكبرى وقضاياها.

وقد شاءت الأقدار أن تقذف بى وسط آتون هذا العالم الغامض فى أكثر من مصلحة حكومية، فرأيت وعايشت وصارعت، حاملًا أفكارى الرومانسية «الثورية»، متصورًا لسنوات قدرتى وقوة هذه الأفكار على النفاذ إلى هذا العالم وناسه، وبعد مرور أكثر من ربع قرن وسط هذه الغابة البشرية، أعترف بأن أفكارى قد تغيرت، وأحلامى حول التغيير قد تواضعت، وأن طموحاتى وسط هذا الوسط البشرى قد تراجعت تمامًا.

وبرغم أن طموحى منذ لحظة تخرجى من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية كان هو العمل فى تلك المساحة التى تتقاطع فيها عمليات البحث العلمى ـ بكل مشقتها ـ بتلك المرتبطة بعالم الصحافة والنشر، وهو ما كدت أحققه بالعمل بعض الوقت فى مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بجريدة الأهرام، لولا دسائس بعض «الرفاق» من جهة ـ وسوء الحظ والتقدير من جهة أخرى ـ التى ذهبتْ بى إلى مسار مختلف تمامًا؛ حيث التقلب فى الوظائف الحكومية، وهو ما أجدنى ـ بعد نظرة فاحصة للوراء

ـ غير نادم عليه، فقد حافظ طموحى الشخصى ورغبتى الجارفة فى المعرفة والبحث العلمى فى تحدى دسائس هؤلاء«الزملاء»، والتعرف على مجالات للمعرفة جديدة لم تحظَ بالكثير من الاهتمام والعمق من جانب الباحثين والعاملين كافة سواء فى مركز دراسات الأهرام، أو فى غيره من مراكز الأبحاث الخاصة أو العامة. وبهذا، أضفت إلى كتاباتى وأبحاثى ومؤلفاتى أبعادًا جديدة ومجالات لا يستطيع الكثيرون الخوض فيها، أو الاقتراب منها.

وعبر هذه الرحلة العلمية والوظيفية طوال ثلاثة عقود، تقاطعت دوائر علمية خمس؛ فشكلت رصيدى المعرفى وعطائى البحثى، وهى علم الاقتصاد، وعلوم السياسة، وعلم القانون ـ خاصة فى جوانبه الإدارية والدستورية ـ وعلوم المالية العامة ـ خاصة ما تعلق منها بالموازنة العامة للدولة وفك أسرارها وخباياها وطلاسمها، وأخيرًا علم الإدارة العامة المصحوبة بالخبرة العملية فى مجال الإدارة الحكومية ودهاليزها المتعددة المسالك والدروب.

وهكذا يصدق القول المأثور «رب ضارة نافعة».

وبالإضافة إلى هذا المخزون المعرفى الذى نجحتُ فى تحقيقه خلال هذا المسار الوظيفى المعقد والطويل، فقد حصَّلتُ الأهم والأصعب وهو مخزون المعرفة بالسلوك الإنسانى لجماعة الموظفين المصريين، والتعرف على أنساق قيمهم الأخلاقية، وحقيقة انتماءتهم الفكرية والسياسية، وقد تجلى ذلك أمامى فى سلوك وتصرفات تأذيت بها بأكثر مما تأذيت من ظروف سجنى واعتقالى المتكرر على يد أجهزة الأمن.

والحقيقة أنه بقدر ما استنزفت المعارك والصراعات ـ التى خضتها فى تلك المنظمات الإدارية التى عملت فيها ـ من طاقتى ووقتى الكثير، بقدر ما علمتنى أيضًا الكثير من الخبرات الإنسانية حول طباع الناس وأخلاقهم ومناط ضعفهم.

وفى آتون نارها ومشاغلها، عرف القلب فيها أولى دقات «الحب» الرومانسى، وتوجع من لوعته عذابات التمنع، التى كان مناطها ومصدرها حسابات المال وتقديرات الموارد !.

كان جرح «الحب»، وألم الرفض المحسوب، مقدرًا أن يستمر نازفًا لسنوات عشر، ولم تستطع كبرياء النفس، ورغبة الشوق أن تطفأ، إلا بعد أن تحقق شىء من الطموح، فكان الرفض دافعًا جديدًا لطموحاتى إلى ما هو أبعد من الكبرياء الشخصى، حيث الحضور فى ضمير أمة وثقافة شعب، قررت أن أكون أحد روافده المعرفية، فتحقق البعض منه، وما زال الطريق ممتدًّا إلى اللانهائى.

فلنفتح إذن ـ معًا ـ صفحات وذكريات «مثقف ثورى» فى دواوين الحكومة؛ علَّنا نتعرف منها على خصائص ذلك العالم الغامض من المثقفين الثوريين، ورافعى الشعارات؛ فنتعلم شيئًا جديدًا، برغم ما تحمله هذه الصفحات من دروس مؤلمة وذكريات حزينة لصاحبها.

عبد الخالق فاروق

حدائق المعادى

يوليو ٢٠٠٧